

الجذر اللغوي وإشكالية الانتماء

إعداد الأستاذ الدكتور
عبد الشافي أحمد علي الشيخ
أستاذ التفسير وعلوم القرآن
كلية الدراسات الإسلامية والعربية
للبنين بالقاهرة - جامعة الأزهر





بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تمهيد

في زمن تعددت فيه الانتماءات وتنوعت في الاتجاهات، وأجاز كثير من المسلمين لأنفسهم الانتماء للإسلام وغيره من المناهج البشرية الرديئة، في زمن جعل كثير من الناس الانتماء للإسلام شعارا لا حقيقة له، وانتسابا بدون توابع ومستحقات، وفي زمن أصبح الانتماء للأوطان عيبا يستتر منه البعض، ويعده أعداء الوطن ضعفا وهوانا، كان لا بد من وضع ضوابط لهذا الانتماء، ولا بد من توضيح دور اللغة العربية في الحفاظ على هذا الانتماء.

ومن المقرر أن الانتماء للوطن تتعدد روافد تأكيده، وأعمدة ترسيخه، فالكون كله يشهد بأن الانتماء للوطن الأصل هو تلك الفطرة التي فطر الله الناس عليها.

ومهما شرق الإنسان أو غرب في أرض الله تراه لا غنى له عن وطنه الأصلي، ذاك لأنها غريزة أودعها الله تعالى جميع المخلوقات، عاقلة كانت أو حتى غير عاقلة، فالكل في النهاية يحن إلى موطنه الأصلي، بل لا يجد نفسه في راحة وسعادة إلا إذا صادف بيئته، ولا عبرة بدعاة الإنسانية الذين يريدون محو فكرة الأوطان فهي فكرة قد تخدعك ببريق كلامها لكنها السم الزعاف، ولا يمكن تطبيقها، يقول د. غالب العواجي في مذهب الفكرية: "من أساليب دعاة الإنسانية أنهم يقولون في تقديمهم لها: إنه يجب محو فكرة اختلاف الأوطان؛ لأن الجميع يعيشون في أرض واحدة، وأن الإنسان هو الذي اختلق تجزأتها، وجعل لها حدودا سياسية مصطنعة، في حين أن الذين يعيشون فوقها هم أيضا جنس واحد، ومن أصل واحد، فلماذا لا نعود إلى الأصل الصحيح، وهو أن الأرض وطن الجميع، ومن عليها أخوة كلهم في الإنسانية، ونضرب صفحا عن كل الاعتبارات الأخرى من الجنس واللون والدين والعادات، والقوميات والوطنيات التي طرأت على الإنسان في شكلها البدائي، ثم أخذت تتوسّع ويتوسّع الانتماء إلى القومية والوطنية

قليلاً قليلاً، إلى أن أصبح في وضع أكبر مما كان في البداية، ولهذا فإنهم يحبون توسيع الدعوة القومية إلى أن يصل الأمر بالجميع إلى قومية واحدة، وإلى وطن واحد، ثم يعيش الجميع تحت ظلّ الإنسانية التي ستظل الجميع، وتنمحي كل الفوارق الأخرى بعد ذلك، ومن هنا فإن دعاء الإنسانية قد يتفائلون بانتشار القومية حين تكون قومية عالمية تسودها الإنسانية، حينما يلبي الجميع واجب الدعوة إلى الإنسانية وحدها، فلماذا لا نطوي المسافة ونأخذ مبادئ الإنسانية اليوم قبل غد، لتحل السعادة وتنتشر الرحمة ويعم الخير... إلى آخره. إنها أحلام سعيدة ودعوة خلاصة براءة حينما يسمعها الشخص لأول وهلة، ولكن وكما تقدّم هل يمكن تحقيق هذه الأحلام، وهل يمكن أن يتنازل الناس بأجمعهم عن قومياتهم وأديانهم وأوطانهم ليدخلوا تحت لواء الإنسانية الذي أقلّ ما سيواجهه معضلة من سيتولى قيادة هذا المنهج الجديد، ولمن تكون القيادة والأمر والنهي؟ وما هو الوطن المفضل؟^(١) وبهذا يتضح عوار هذه الفكرة التي تصطدم مع الغريزة التي أودعها الله الإنسان، فكلك مخلوق وطنه وبيئته، ولكل غائب حينين إلى مسقط رأسه، والإسلام لا يمنع الناس أبداً من الانتماء لوطنهم وحبهم له فهذا أمر فطر عليه الحيوان فضلاً عن الإنسان، فالحيوان يحب جحره ويدفع عنه، والطير يألف عشه ويحافظ عليه، فكيف بالإنسان؟!

واللغة العربية وعاء لكل فكرة، وأداة تعبير لكل ما يعتقد الإنسان، ولذلك فإن الصلة بين اللغة وبين الفكرة علاقة أبدية أزلية، وإذا كان الاتجاه العام في جميع المخلوقات والأفكار هو الانتماء، فإن اللغة العربية بدورها قد ساهمت في نشر ثقافة الانتماء، بكل صوره وأشكاله، سواء

(١) انظر: المذاهب الفكرية المعاصرة ودورها في المجتمعات وموقف المسلم منها، المؤلف: د. غالب بن علي

عواجي، الناشر: المكتبة العصرية الذهبية-جدة، الطبعة: الأولى ١٤٢٧ هـ-٢٠٠٦ م، ٢ / ٨٤٦.

انتماء إلى الدين والعقدية وهو في قمة الهرم، ولا يختلف عليه اثنان: "قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِينُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ" (٢٤) (١)

يقول الدكتور وهبة الزحيلي (٢) معلقاً على هذه الآية الكريمة: "ومن المعروف أن محبة هذه الأمور الثمانية بالطبيعة، فمحبة الآباء غريزة عند الأبناء لأن الولد بضعة من أبيه، والولد يشعر أن أباه سبب في وجوده، والعرب قديماً وحديثاً يفخرون بالآباء، لهذا حث الله على ذكره في الحج مثل ذكر الآباء أو أشد، فقال: فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا" (٣)، ومحبة الأبناء غريزة أيضاً، بل هي أشد من محبة الآباء إذ الولد فلذة من الكبد، وهو محط الأمل، ومفخرة الأهل، كما قال تعالى: الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا" (٤)

والأخ يتقوى بأخيه، ويربطهما الانتماء للأصول من الأب والأم، قال تعالى لموسى: سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ" (٥)

(١) التوبة ٢٤.

(٢) انظر: التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، د. وهبة بن مصطفى الزحيلي، ط: دار الفكر المعاصر - دمشق،

الطبعة: الثانية، ١٤١٨ هـ، ١٠ / ١٥١

(٣) البقرة ٢٠٠.

(٤) الكهف ٤٦.

(٥) القصص ٣٥.

وحب الزوجة أمر فطري أيضا، وكل من الزوجين يكمل الآخر، وسكينة له، وبينهما الود والتراحم: وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ. (١)

وحب العشيرة قائم على الحاجة للتعاون والتناصر، وهو شديد التأثير في المجتمعات القبلية. وحب المال المكتسب قوي عند الإنسان لأنه ثمرة عنايه وجهده، وكذلك حب التجارة أصيل في النفس البشرية لأنه مصدر التمويل، لذا يحرص الشخص على تنمية تجارته، لتنمو موارده، وتكثر أرباحه، فيستفيد منها.

وحب المساكن الطيبة أمر مستكن في النفوس لأنها مهد الراحة والطمأنينة والاستقرار، ووسيلة التفاخر والتظاهر بالنعمة، وربما كانت من المقومات الاجتماعية في الأعراف والعادات.

وبالرغم من مظاهر الحب وحقائقه لهذه الأنواع الثمانية، أمر الله تعالى بإيثار حب الله والرسول وطاعتهما والجهاد في سبيله على هذه الأشياء لأن الله تعالى مصدر جميع النعم، وملجأ لدفع كل الكروب والمحن، لذا وصف تعالى المؤمنين بقوله: وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ (٢)

ومن هنا تنامت فكرة دراسة الجذر اللغوي في العربية، ودره في تعميق مفهوم الانتماء، مؤكدا تناغم الكون كله مع فكرة الانتماء الحقيقي، وقد جاءت الدراسة فقط في تمهيد ومطلبين وخاتمة - أسأل الله أن يحسنها - على النهج التالي:

(١) الروم ٢١.

(٢) البقرة ١٦٥.

المطلب الأول

الانتماء ضرورة وغريزة

أسهمت العديد من المخلوقات والأشياء من حولنا في تعميق فكرة الانتماء، فنرى الحيوانات والطيور كلها تحن إلى موطنها الأصلي، وكل مخلوق لا يجد نفسه إلا وسط موطنه، وإلا شعر بغربة مهما توفرت لديه مظاهر السعة والاستغناء، فقد يستغني الإنسان عن أي شيء لكن لا يتصور عقلا؟ أن يستغني عن وطنه، وأسألوا من فقدوا أوطانهم يجيبونكم بدمع العين مضافورا ومهورا بدمع القلب، لأن الإنسان بلا وطن هو إنسان بلا هوية، فالوطن ليس أرضا نعيش عليها أو نسكنها بل هو كيان يسكننا ويزرع فينا المحبة والانتماء له، ولقد حرص النبي ﷺ على تدعيم وتقرير هذا المبدأ - مبدأ الانتماء للوطن - فخصص له قسطا ليس باليسير من أقواله واحاديث، فيأتيه أحدهم من مكة بعد هجرته صلى الله عليه إلى المدينة، فيسأله النبي عن بطحاء مكة، عن أرضها وسماؤها، عن زرعها ومرعاهها، عن طيورها وأشجارها، فيجيبه الصحابي بكلمات تفيض محبة ومودة تجاه مكة، فتدمع عين النبي ﷺ مشيرا إليه بيده أن اسكت ألا تهيج مشاعرنا تجاه مكة المكرمة.

وكان من أولى اهتمامات النبي ﷺ في المدينة أن يربي الصحابة على حب المدينة حتى أنه كان يدعو في دعائه وصولاته: "اللهم حبب إلينا المدينة كما حبيت إلينا مكة" في لمسة وفاء لوطنه الأصلي، ولما كان الانتماء أصلا من أصول الحياة حق لنا أن نتلمس أدلته مما يحيط بنا، ومن هنا فهمنا أن لا بأس أن نستدل على هذه السنة والفترة النقية بما توفر لدينا من أدلة داعمة، ولم تكن اللغة العربية أبدا بمنأى عن هذا التعبير الصامت، الذي يفوق أحيانا الحديث الصاخب المرتفع، فاللغة العربية بسمتها وخصائصها تدعم فكرة الانتماء للأصل.

ولقد حفلت حياة النبي - ﷺ - بمشاهد ووقائع دلّت على تمثله لهذه الحقيقة، وتعاطيه مع

تلك الغريزة، برزت في المواقف التالية:

١ - الحب والولاء لبلد الولادة والنشأة؛ قال النبي - ﷺ - لمكة: ((ما أطيبك من بلد، وأحبك إليّ! ولولا أن قومي أخرجوني منك ما سكنتُ غيرك))؛ أخرجه الترمذي. (١) فالنبي ﷺ هنا يثني على مسقط رأسه وموطنه، ويشير إلى تعلقه بها وانتمائه إليها، مقررًا أنه لم يخرج منها طواعية، بل خرج منها بفعل قومه وعنادهم واضطهادهم له ﷺ.

٢ - الانتماء للطائفة، قال ﷺ: ((لو أن الأنصار سلكوا واديًا، أو شِعْبًا، لسلكتُ في وادي الأنصار، ولولا الهجرة لكنتُ امرأً من الأنصار))؛ رواه البخاري. (٢) وهنا لون من ألوان الانتماء وهو الانتماء إلى الطائفة التي آوت النبي ونصرته وهم طائفة الأنصار، وما أجمله من عرفان بالجميل ممزوج بالانتماء الصادق، ولذلك علق راوي الحديث " أبو هريرة " على كلام النبي ﷺ بقوله: «مَا ظَلَمَ بِأَبِي وَأُمِّي، أَوْهُ وَنَصْرُوهُ، أَوْ كَلِمَةٌ أُخْرَى».

٣ - التعزّي والافتخار بالقبيلة والعائلة: كان النبي - ﷺ - يقول: ((أنا النبيُّ لا كذب، أنا ابنُ عبدالمطلب))؛ رواه البخاري. (٣)

(١) انظر: سنن الترمذي برقم الحديث ٣٩٢٦، وقال حديث حسن صحيح. ٧٢٣ / ٥، ط: مصطفى البابي الحلبي ١٩٧٥ م ط: ثانية.

(٢) صحيح البخاري برقم الحديث ٣٧٧٩، من حديث أبي هريرة، المحقق: محمد زهير بن ناصر الناصر، الناشر: دار طوق النجاة (مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي، ٣١ / ٥. الطبعة: الأولى، ١٤٢٢ هـ.

(٣) صحيح البخاري برقم الحديث ٢٩٣٠ من حديث البراء، ٤٣ / ٤.

والناظر إلى هذا الحديث يعلم أن النبي - ﷺ - جعل حتى للعائلة والقبيلة نصيبا من الانتماء والفخار بها، دون المساس بثوابت الدين، وألا يجرنا هذا الانتماء إلى الظلم أو ما شابهه.

٤- تصويبُ الآراء، وتصحيح الأفكار: عن أنسٍ رضي الله عنه، قال: دعا النبيُّ - ﷺ - - الأنصارَ فقال: ((هل فيكم أحدٌ من غيركم؟!))، قالوا: لا، إلا ابنُ أختٍ لنا، فقال رسول الله ﷺ: ((ابنُ أختِ القومِ منهم))؛ رواه البخاري. ^(١) وفيه ما لا يخفى أن النبي حرص على توضيح ما شاع خطأه من أن ابن الأخت لا ينتمي إلى عائلة الأم، ولولا أن الانتماء إلى العائلات مقرر ولا عيب فيه لما تناول النبي ﷺ هذا المفهوم بالشرح والتوضيح.

٥- التحذير من الإفراط أو التفريط في الانتماء والانتساب: عن أبي مالك الأشعري: أن النبي ﷺ قال: ((أربعٌ في أمتي من أمر الجاهلية، لا يتركونهنَّ: الفخرُ في الأحساب، والطعن في الأنساب، والاستسقاء بالنجوم، والنياحة)) رواه مسلم. ^(٢)

وفي الحديث توضيح للحد المسموح به في الانتماء والصلة، فيسمح بالانتماء مالم يطغ على حد من حدود الله، ومالم يتخذها الناس ذريعة للتفاخر والتعالي على عباد الله، وهي ضوابط رصينة لا يمكن الاستغناء عنها.

ومما تقدم من النصوص المتضاربة، بما لا يدع مجالاً للشك أن الإسلام لم يجرم حقيقة الانتماء بل حافظ على الفكرة ووضعها في إطار منضبط، وسياج يحافظ عليها من التشتت،

(١) صحيح البخاري برقم الحديث ٦٧٦٢ من حديث أنس ٨ / ١٥٥.

(٢) صحيح مسلم برقم الحديث ٩٣٤، ٢ / ٦٤٤ من حديث أبي مالك الأشعري. تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي،

الناشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت.

فالانتماء موجود بل مطلوب، بشرط ألا تنزلق فيه الأقدام فيؤدي إلى التناحر والحروب والدمار بدعوى الانتماء.

ويمكن أن نخلص مما سبق أن الوطنية قيمة خلقية يتسع نطاقها من محل الإقامة أو النشأة أو الولادة إلى كل شبر من أراضي الدولة.

ويمكن تعريفها بـ: محبة في القلب لمحل الانتماء يظهر أثرها في مدى غير المرء على وطنه وحرصه على الرقي به والحفاظ على مكتسباته ومودة أهله وبغض أعدائه.

وهذه المحبة مركوزة في الطبائع لا يكاد ينفك عنها قلب امرئ، سوى من كان في نفسه مرض يحرف فطرته عن طبعها السوي، ونحن نعرف الأخلاق الفطرية من أنفسنا ومن سبّرنا لمن حولنا ونظرنا في تاريخ الإنسانية، فإذا وجدنا ثمَّ حُلُقًا لا ينفك عن الإنسان أنى وُجد في الزمان والمكان علمنا أنه مما فطر الله الناس عليه ولا تبديل لخلق الله.

ولسنا لإثبات فطرة من الفطر بحاجة إلى كتاب فلسفي أو نقل عن عالم ما، فما نعلمه من أنفسنا لا نحتاج إلى تعلمه من غيرنا.

ومن حكمة المولى ﷺ أن غرس هذه الفطرة في النفوس، ليتحقق إعمار الكون الذي أمر الله بعمارته، فسكنت الصحاري والقفار وأعالي الجبال وأحبها أهلها وتناسلوا فيها آلاف السنين بالقدر نفسه من الحب الذي أفاضه أهل الأودية والأنهار ومنابت الغابات على ديارهم، بل وقاتل أهل القفار وقتلوا دون ديارهم كما قاتل أهل الغابات وقتلوا.

ودين الله الذي ارتضاه لخلقه لا تُعارض أحكامه ما فطرهم عليه من سجايا وأخلاق، وإلا نكون قد زعمنا في الشرع عدم الحكمة أو التكليف بما لا يطاق، وهذا كما لا يخفى من الممتنع شرعا والله الحمد والمنة.

بل جاء الشرع مؤيدا للفطر ومهدبا إياها وحاميا لها بالشرعية من أن تنزلق بها الأهواء إلى ما لا تحمد عقباه.

فمما يُعرف به تأييد الشرع لمحبة الأوطان: ما جعله الله تعالى من الثواب العظيم على هجرتها إليه سبحانه عندما تتوفر شروط الهجرة وموجباتها، ولعله لم يكن للهجرة هذا الفضل لولا ما لمحبتها من التأثير في النفوس السوية، وتمسك الأحرار بأوطانهم وتحملهم في سبيلها مغبات كل شيء. قال تعالى: {وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَآغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكُهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا} (١) وقد جعلها رسول الله ﷺ قرينة للإسلام والحج في تكفيرها لما قبلها من الآثام (أما علمت أن الإسلام يهدم ما كان قبله وأن الهجرة تهدم ما كان قبلها وأن الحج يهدم ما كان قبله) (٢)

وقرن الله تعالى قتل النفس بالإخراج من الوطن في ميثاقه سبحانه على بني إسرائيل: {وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ} وبعد الهجرة من مكة إلى المدينة كان - ﷺ - لما قدم المدينة هو وأصحابه يشكون الشعور بالغربة حتى كان بلال ينشد إذا ارتفع عنه البواء

ألا ليت شعري هل أبين ليلة
بواد وحولي إذخر وجيل
وهل أردن يوما مياه مجنة
وهل يبدون لي شامة وطفيل
فقال ﷺ: (اللهم حَبِّبْ إِلَيْنَا الْمَدِينَةَ كَحُبِّنَا مَكَّةَ أَوْ أَشَدَّ)

(١) النساء ١٠٠.

(٢) صحيح مسلم ١ / ١١٢.

وروى أصحاب السير^(١) حديث أصيل الغفاري حين قدم من مكة فسألته عائشة كيف تركت مكة يا أصيل فقال تركتها حين ابيضت أباطحها وأحجج ثماؤها وأغدق إذخرها وأمشر سلمها فاغروقت عينا رسول الله وقال لا تشوفنا أصيل. ويروى أنه قال له دع القلوب تقر.

فمحنة الأوطان ليست مجرد فطرة أو خلق وحسب بل هي عبادة لا يتم الدين إلا بها، ولا ضير من اتساع نطاق الشعور بالانتماء من القرية أو المحلة إلى ما تضمنته حدود الدولة، إذ هو كسائر المشاعر النبيلة لا يمنع الإسلام من اتساع نطاقها، كالمحبة والكرم والعطف، مادام المحبوب والمكرم ممن أبيضت لنا محبته وإكرامه والعطف عليه.

هذا ولم تعد مسألة الانتماء من المسائل الافتراضية التي تُعدّ مناقشة الفقهاء لها تكلفاً أو ترفاً فكرياً، بل هو مصطلح ينادى به في كل مكان وتقوم على أساسه حركات وتنظيمات وتهراق في سبيله دماء وأموال، وعليه فلا يصح أن يترك دون أن يدرس ويبين الوجه الصحيح فيه.

كما أن حب الوطن ليس مدرأة للفتن ومجلبة للأمن والاستقرار وحسب، فهو حب ولا يكون الحب صحيحاً حتى تظهر آثاره في تصرفات المحب نحو محبوبه، وإذا صدق القلب في محبة الوطن أثمر رفقا وتهذيباً في تعامل الجوارح مع أجزاء هذا الوطن ومكوناته، كما يثمر إخلاصاً وصدقاً في العمل من أجل نمائه وتقدمه، وغيره على أهله ومكتسباته

(١) الروض الأنف في شرح السيرة النبوية، المؤلف: أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد السهيلي (المتوفى:

٥٨١ هـ)، الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٢ هـ / ٣ / ٢٥.

المطلب الثاني

خصائص اللغة العربية التي تدعم الانتماء

اللغة العربية: هي لغة القرآن والسنة والعلوم والآداب، وهي لغة خالصة سليمة من كل عيب، لا يخالطها لفظ عامي أو أعجمي، خلاف العامية، ويحرص الخطباء والدعاة على استخدام الفصحى في كلامهم - وتذاع نشرات الأخبار باللغة العربية الفصحى.

واللغة العربية من أغزر اللغات من حيث المادة اللغوية، فعلى سبيل المثال يحوي معجم لسان العرب لابن منظور من القرن الثالث عشر أكثر من ثمانين ألف مادة، في حين قاموس صموئيل جونسون باللغة الإنجليزية - وهو من أوائل من وضع قاموساً إنجليزياً من القرن الثامن عشر - يحتوي على اثنين وأربعين ألف كلمة فقط.^(١)

تحتوي اللغة العربية ثمانية وعشرين حرفاً مكتوباً. ويرى بعض اللغويين أنه يجب إضافة حرف الهمزة إلى حروف العربية، ليصبح عدد الحروف تسعة وعشرين. تكتب العربية من اليمين إلى اليسار - ومثلها اللغة الفارسية والعبرية على عكس كثير من اللغات العالمية - ومن أعلى الصفحة إلى أسفلها.

ويقول بعض العلماء: إن اللغة العربية هي أقرب اللغات السامية إلى «اللغة السامية الأم»، وذلك لأنها احتفظت بعناصر قديمة تعود إلى اللغة السامية الأم أكثر من أي لغة سامية أخرى. ففيها أصوات ليست موجودة في أي من اللغات السامية الأخرى، بالإضافة إلى وجود نظام

(١) موقع ويكيبيديا على شبكة الإنترنت.

الإعراب والعديد من الصيغ لجموع التكسير والعديد من الظواهر اللغوية الأخرى التي كانت موجودة في اللغة السامية الأم.^(١)

وقد راجت اللغة العربية في العديد من البلدان خاصة بعد بعثة النبي ﷺ، وكان للفتوحات الإسلامية الأثر البالغ في هذا المجال، واقتحمت اللغة العربية العديد من البلاد العجمية، وعشقها بعض ساكنيها حتى أسهم عدد من الأعاجم في تطوير اللغة العربية ومصطلحاتها خلال العصرين الأموي والعباسي بفضل ما نقلوه إلى العربية من علوم مترجمة عن لغتهم الأم، فبرز في العربية كلمات ومصطلحات جديدة لم تكن معهودة من قبل، مثل «بیمارستان»، المأخوذة من الفارسية. وخلال العصر الذهبي بلغت اللغة العربية أقصى درجات الازدهار، حيث عبّر الأدباء والشعراء والعلماء العرب والعجم عن أفكارهم بهذه اللغة، فكتبت آلاف المجلدات والمؤلفات والمخطوطات حول مختلف المواضيع بلسان العرب. وكان من أهمية اللغة العربية في المجال العلمي والثقافي، أن اقتبست بعض اللغات الأوروبية كلمات منها أثناء العهد الصليبي في المشرق، أو عن طريق الاختلاط مع عرب الأندلس.

ومن أبرز اللغات التي تأثرت بالعربية: الإنكليزية والفرنسية والإسبانية والإيطالية والألمانية. وحظيت اللغة العربية بما لفت حظها به لغة غيرها من الاهتمام والتصنيف والتبويب والشرح والإيضاح، كثرت فيها المعاجم والمؤلفات النفيسة، صارت مفتاحاً للعلوم الشرعية وعلى رأسها تفسير القرآن الكريم.

وأرى أن جميع اللغات هي لغات عربية: بمعنى أنه يُعرب بها متحدثها عما يجول بخاطره فإن الإعراب هو الإفصاح والتبيين يقول الأزهري في تهذيب اللغة: "يُقَال: عَرَّبْتُ عَنِ الْقَوْمِ إِذَا

(١) أنظر: فقه اللغة العربية وخصائصها، د. إميل بديع يعقوب، ص ٣٢.

تَكَلَّمْتُ عَنْهُمْ واحتججت لَهُمْ. قلت: الإِعْرَابُ والتعريب مَعْنَاهُمَا وَاحِدٌ، وَهُوَ الإِبَانَةُ. يُقَالُ: أَعْرَبَ عَنْهُ لِسَانُهُ وَعَرَّبَ أَيُّ أَبَانَ وَأَفْصَحَ. وَيُقَالُ: أَعْرَبَ عَمَّا فِي ضَمِيرِكَ أَيُّ ابْنِ. وَمِنْ هَذَا يُقَالُ لِلرَّجُلِ إِذَا أَفْصَحَ فِي الْكَلَامِ: قَدْ أَعْرَبَ. (١)

ويقول الرازي في مقاييس اللغة: " (عَرَبَ) الْعَيْنُ وَالرَّاءُ وَالْبَاءُ أَصُولٌ ثَلَاثَةٌ: أَحَدُهَا الإِبَانَةُ وَالْإِفْصَاحُ، وَالْآخَرُ التَّشَاطُ وَطِيبُ النَّفْسِ، وَالثَّلَاثُ فَسَادٌ فِي جِسْمٍ أَوْ عُضْوٍ. فَالْأَوَّلُ قَوْلُهُمْ: أَعْرَبَ الرَّجُلُ عَنْ نَفْسِهِ، إِذَا بَيَّنَّ وَأَوْضَحَ. قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ -: «الثَّيْبُ يُعْرَبُ عَنْهَا لِسَانُهَا، وَالْبِكْرُ تُسْتَأْمَرُ فِي نَفْسِهَا» وَجَاءَ فِي الْحَدِيثِ: " يُسْتَحَبُّ حِينَ يُعْرَبُ الصَّبِيُّ أَنْ يَقُولَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ. سَبْعَ مَرَّاتٍ "، أَي حِينَ يُبَيِّنُ عَنْ نَفْسِهِ. وَلَيْسَ هَذَا مِنْ إِعْرَابِ الْكَلَامِ. وَإِعْرَابُ الْكَلَامِ أَيْضًا مِنْ هَذَا الْقِيَاسِ، لِأَنَّ بِالْإِعْرَابِ يُفْرَقُ بَيْنَ الْمَعْنَى فِي الْفَاعِلِ وَالْمَفْعُولِ وَالنَّفْيِ وَالتَّعَجُّبِ وَالِاسْتِيفَامِ، وَسَائِرِ أَبْوَابِ هَذَا النَّحْوِ مِنَ الْعِلْمِ. فَأَمَّا الْأُمَّةُ الَّتِي تُسَمَّى الْعَرَبُ فَلَيْسَ بِبَعِيدٍ أَنْ يَكُونَ سُمِّيَتْ عَرَبًا مِنْ هَذَا الْقِيَاسِ لِأَنَّ لِسَانَهَا أَعْرَبُ الْأَلْسِنَةِ، وَبَيَانُهَا أَجْوَدُ الْبَيَانِ. وَمِمَّا يُوَضِّحُ هَذَا الْحَدِيثَ الَّذِي جَاءَ: " إِنْ الْعَرَبِيَّةَ لَيْسَتْ بَابًا وَاحِدًا، لَكِنَّهَا لِسَانٌ نَاطِقٌ " . وَمِمَّا يَدُلُّ عَلَى هَذَا أَيْضًا قَوْلُ الْعَرَبِ: مَا بِهَا عَرِيبٌ، أَيُّ مَا بِهَا أَحَدٌ، كَأَنَّهُمْ يُرِيدُونَ، مَا بِهَا أَيْسٌ يُعْرَبُ عَنْ نَفْسِهِ. (٢)

(١) أنظر: تهذيب اللغة، محمد بن أحمد بن الأزهر الهروي، أبو منصور (المتوفى: ٣٧٠ هـ)، تحقيق: محمد عوض مرعب، ط: دار إحياء التراث العربي - بيروت، ط: أولى، ٢٠٠١م، ٢ / ٢١٩.

(٢) معجم مقاييس اللغة، لأحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين (المتوفى: ٣٩٥ هـ)، المحقق: عبد السلام محمد هارون الناشر: دار الفكر ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م. ٤ / ٣٠٠، وراجع في ذات المقام: تاج العروس من جواهر القاموس، لمحمد بن محمد بن عبد الرزاق الحسيني، أبو الفيض، الملقب بمرتضى، الزبيدي (المتوفى: ١٢٠٥ هـ)، تحقيق: مجموعة من المحققين، ط: دار الهداية ٣ / ٣٣٥.

وهو ما يؤكد كلامنا من أن اللغات كلها عربية، وإنما خصت لغتنا بهذا الاسم لأنها أقوى اللغات تعبيراً عن المشاعر وغيرها، فلسانها أعرب الألسنة كما قال الرازي في مقاييسه، وتصير الألف واللام فيها هي للكمال، أي أن اللغة الكاملة هي اللغة التي ينطق بها العرب، على حدي قول القائل: فلان هو العالم، أي اجتمعت واكتملت فيه صفات العالم بحق. وصدق الله: " وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهُوٌّ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٦٤) ^(١) أي الدار الآخرة هي الحياة الكاملة الحقيقية التي لا يعترىها تنغيص ولا كدرة.

وعليه فاللغة التي يتحدث بها العرب هي اللغة المستوعبة لجميع المشاعر والمواقف، فهي المعبرة بحق عن كل ما يعترى الإنسان من مشاعر وأحداث، بخلاف غيرها من اللغات التي لا تستوعب كافة المشاعر كما سنرى.

وبالجملة: فإن شهادتنا للغة العربية شهادة مجروحة، فهي لغتنا الأم، ولغة القرآن ولغة أهل الجنة ولغة الحساب، وبيننا وبينها قصة الحياة بأكملها، لكن في ذات الوقت لا يسعنا أن نتجاوز بعض الحقائق عنها، ونكتفي هنا بالخصائص والمميزات التي تقرر لنا مبدأ الانتماء.

فإن المتمرس في اللغة العربية يدرك شيئاً هاماً، وهي أن الكلمات التي تنتمي إلى جذر واحد، فهي تشترك مع بعضها البعض في النطق وفي المفهوم أيضاً، وكأنها تقول لنا بلسان حالها أنا أنتمي إلى عائلة صوتية بعينها، وأنتمي إلى معنى معجمي بعينه، وهذا ما تفتقده لغات أجنبية عديدة.

(١) العنكبوت ٦٤ .

ولنأخذ على ذلك مثالا واضحا: إن الجذر المؤلف من الحروف الثلاث (الكاف- التاء -

الباء) والتي ينحدر منه العديد من الكلمات أسماءً وأفعالا، فنقول:

كتب: فعل ماضي.

يكتب: فعل مضارع.

اكتب: فعل أمر.

كاتب: اسم فاعل.

مكتوب: اسم مفعول.

كتابة: مصدر للكتابة.

كتاب: اسم لما يحوي صفحات مكتوبة. وجمعه: كتب.

مكتب: اسم لما يوضع عليه الكتب. وجمعه: مكاتب.

مكتبة: اسم لما تباع فيه الكتب أو تعرض فيه للاطلاع. وجمعها: مكتبات.

كُتِبَ: اسم مرة أو هيئة للفعل " كتب ".

وأنا أدعو القارئ الكريم لشيء من التأمل والملاحظة، متسائلا معه: هل لاحظت شيئا؟

هل لاحظت أن جميع الكلمات التي ذكرتها وأكثر منها -لو استقرأت-، تشترك في الجذر

اللغوي المكون من الثلاثة أحرف التي سبق الإشارة إليها؟

فعندما تجمع هذه الكلمات وتضعها نصب عينيك تجد بينها لحمة وتألفا عجيبا في النطق

والمعنى، فالكل يخرج من مشكاة واحدة وهو الجذر اللغوي لها، فتتفق نطقا في معظم الحروف

وهناك قسم مشترك أيضا في المعنى، فالكتاب هو ما يحوي الكتابة ويوضع على المكتب ويؤخذ

من المكتبة ومفعوله مكتوب إلى آخره.



وبنظرة سريعة إلى اللغات الأخرى بخلاف اللغة العربية لا تجد بين كلماتها هذا الانتماء والألفة واللحمة، فنفس الكلمات التي أوردناها عند تحويلها إلى اللغة الإنجليزية مثلا تجد شتاتا وتباينا في النطق والمعنى.....

Write
Book
Liperary
Tipol
Liter
<<<<

وبهذا نجزم بأن اللغة العربية بقواعدها وخصائصها رافد من روافد تعليم الانتماء، فلسان حالها ولسان قواعدها وخصائصها ينطق بهذا الانتماء.

فلهذا نعلم أبناءها الانتماء دون أن تتفوه بكلمة واحدة، وتكتفي بتلك الإشارات اللطيفة من خلال خصائصها.

● **ومن خصائص اللغة العربية أيضا** والذي يدعم فكرة الانتماء، أن بعض الحروف المعينة متى وجدت في كلمة عربية خالصة فهي تدل على معنى ثابت مهما اختلفت تقلبات هذه الحروف ومهما زاد عليها ومهما كان ترتيبها، وحتى لا نطيل نأخذ على ذلك مثلا واحدا، وهو أن حرف الجيم متى اجتمع مع حرف النون في كلمة عربية خالصة فلا يخلوا معناها أبدا عن مفهوم الستر والخفاء، مهما كان عليها من الحروف الزائدة.

- الجنى: ومن صفاته أنه لا يرى كما نطق به القرآن الكريم. " إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ (٢٧) (١) " يقول ابن عطية: " وقوله: إِنَّهُ يَرَاكُمْ الآية، زيادة في التحذير وإعلام أن الله ﷻ قد مكن الشيطان من ابن آدم في هذا القدر وبحسب ذلك يجب أن يكون التحذر بطاعة الله تعالى. قال القاضي أبو محمد: والشيطان موجود قد قررته الشريعة وهو جسم، وَقَبِيلُهُ يريد نوعه وصفه وذريته. " (٢) "
- مجنون: إشارة إلى غياب عقله واستتاره عن الوعي.
- جنّ: بمعنى أرخى سدوله فحجب الرؤية. يقول البيضاوي في تفسيره: " وجن عليه الليل ستره بظلامه " (٣) "
- الجنين: من أخص صفاته أنه غائب مستتر عن الرؤية العادية.
- جنّة: وهي البستان الملتف الأغصان لدرجة أنه يستر ما تحته ويحجب الرؤية. ولذلك قال الزجاج في تفسيره لقول الله تعالى في وصف الجنة " مدهامتان " قال ﷻ: " وقوله ﷻ: "

(١) الأعراف ٢٧ .

(٢) تفسير ابن عطية المحرر الوجيز ٢ / ٣٩١ المحقق: عبد السلام عبد الشافي محمد، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة: الأولى - ١٤٢٢ هـ.

(٣) أنوار التنزيل وأسرار التأويل، المؤلف: ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي (المتوفى: ٦٨٥ هـ).

المحقق: محمد عبد الرحمن المرعشلي، الناشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت، الطبعة: الأولى - ١٤١٨ هـ. / ٢

(مُدْهَامَتَانِ): يعني أنهما خَضِرَاوَانِ تضرب خضرتهما إلى السَّوَادِ، وكل نبت أخضِرَ فتمام خضرتَه وريِّه أن يضرب إلى السَّوَادِ.^(١)

وهي إشارة جديدة من إشارات اللغة العربية تقرر مبدأ الانتماء، فبعض الحروف لها انتماء خاص في المعنى مهما اختلفت الترتيب وهو ما يسمى بالاشتقاق الأكبر، وهو ما أشار إليه العديد من معاجم اللغة كالعين للخليل ابن أحمد الفراهيدي، وأمثله تفوق الحصر، وإذا أردنا أن نأخذ عليه مثالا فيكفينا أن حرف السين مع الفاء مع الراء يدل على الوضوح والبيان مهما اختلف التقلب والترتيب، فمثلا "فسر" هي من البين والوضوح والإفصاح.

وكذا كلمة سفر فيها معنى الوضوح والبيان حتى خصها البعض بالوضوح في المحسات بينما قصر "فسر" على إيضاح المعاني

ولذلك نجد أنه عندما قرر الخليل تصنيف كتاب العين لاستيعاب مفردات اللغة العربية اعتمد على إعداد حروف الكلمة، مع تبديل مواضع حروفها حسب الحالات الممكنة حسابيا، وسميت هذه العملية بالاشتقاق الكبير، مثل علم، عمل، معل، ملع، لعم، لمع، ثم بين المستعمل والمهمل من هذه المفردات وابتدأ بحرف العين لأسباب تعود إلى طبيعة هذه الحرف من حيث مخرجه و صفاته، و لهذا العمل صلة واضحة بالتفكير في دراسة مخارج الحروف كلها، و استظهار صفاتها، و هكذا لأول مرة، ضبطت مخارج الحروف و عرف منها ما هو حلقي، و لهوي، و شفوي إلخ، و ما يوسم بالجهر و الهمس و الاستعلاء و الشدة و الرخاوة و نحوها.

(١) معاني القرآن وإعرابه، المؤلف: إبراهيم بن السري بن سهل، أبو إسحاق الزجاج (المتوفى: ٣١١ هـ)، المحقق: عبد الجليل عبده شلبي، الناشر: عالم الكتب - بيروت، الطبعة: الأولى ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م ٥ / ١٠٣ .

وهكذا أثبت الخليل من خلال عبقريته في تأليف كتاب العين، أن دوران الحروف في الكلمة يفتح أفقا جديدا أمام قضية الانتماء، حيث قرر - ﷺ - أن حروف الكلمة الواحدة مهما اختلف ترتيبها ودورانها لكنها في النهاية تشترك في معنى واحد، ويجمعها قاسم مشترك من المعنى، وهو ما يؤخذ منه فكرة الانتماء.

الخاتمة

وبها توصيات الدراسة .

وبعد هذه التطوافة السريعة حول خصائص اللغة العربية وقانون الجذر اللغوي وكيف أنه يخدم فكرة الانتماء، يتأكد لدينا بما لا يدع مجالاً للشك أن اللغة العربية هي قالب المشاعر الفاضلة تجاه الأوطان، وأن مفرداتها تلبّي احتياجات هذه المشاعر الفياضة تجاه الوطن، بما قد تعجز عنه لغة أخرى في ذات المقام.

- وكما قررت الدراسة أن جميع المخلوقات لها وطن ولا يمكن بحال من الأحوال أن تستغني عن أوطانها، ولا يرجى منها الخير إلا وهي مستقرة في أوطانها.
- قررت الدراسة أن الكون كله يخدم قضية الانتماء.
- قواعد اللغة العربية ساهمت بشكل مباشر في تقرير قضية الانتماء
- وما زالت قواعد اللغة العربية تحتاج إلى عمق في النظر لنستبطن منها المعاني الراقية بلسان حالها وإن لم يكن بلسان مقالها.

أد عبد الشافي الشيخ

أستاذ التفسير وعلومه بالكلية

قائمة المصادر والمراجع

- أنوار التنزيل وأسرار التأويل، المؤلف: ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي (المتوفى: ٦٨٥ هـ)، المحقق: محمد عبد الرحمن المرعشلي، الناشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت، الطبعة: الأولى - ١٤١٨ هـ.
- تاج العروس من جواهر القاموس، لمحمد بن محمد بن عبد الرزاق الحسيني، أبو الفيض، الملقب بمرضى، الزبيدي (المتوفى: ١٢٠٥ هـ)، تحقيق: مجموعة من المحققين، ط: دار الهداية .
- تفسير ابن عطية المحرر الوجيز المحقق: عبد السلام عبد الشافي محمد، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة: الأولى - ١٤٢٢ هـ.
- التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، دوهبة بن مصطفى الزحيلي، ط: دار الفكر المعاصر - دمشق، الطبعة: الثانية ١٤١٨ هـ.
- تهذيب اللغة، محمد بن أحمد بن الأزهر الهروي، أبو منصور (المتوفى: ٣٧٠ هـ)، تحقيق: محمد عوض مرعب، ط: دار إحياء التراث العربي - بيروت، ط: أولى، ٢٠٠١ م.
- الروض الأنف في شرح السيرة النبوية، المؤلف: أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد السهيلي (المتوفى: ٥٨١ هـ)، الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٢ هـ.
- سنن الترمذي ط: مصطفى الحلبي ١٩٧٥ م ط: ثانية.

- صحيح البخاري المحقق: محمد زهير بن ناصر الناصر، الناشر: دار طوق النجاة (مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي).
- صحيح مسلم: تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت الطبعة: الأولى، ١٤٢٢ هـ.
- فقه اللغة العربية وخصائصها، د. إميل بديع يعقوب.
- المذاهب الفكرية المعاصرة ودورها في المجتمعات وموقف المسلم منها، المؤلف: د. غالب بن علي عواجي، الناشر: المكتبة العصرية الذهبية-جدة، الطبعة: الأولى ١٤٢٧ هـ-٢٠٠٦ م.
- معاني القرآن وإعرابه، المؤلف: إبراهيم بن السري بن سهل، أبو إسحاق الزجاج (المتوفى: ٣١١ هـ)، المحقق: عبد الجليل عبده شلبي، الناشر: عالم الكتب - بيروت، الطبعة: الأولى ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م.
- معجم مقاييس اللغة، لأحمد بن فارس بن زكريا القزويني الرازي، أبو الحسين (المتوفى: ٣٩٥ هـ)، المحقق: عبد السلام محمد هارون الناشر: دار الفكر ١٣٩٩ ق - ١٩٧٩ م.
- موقع ويكيبيديا على شبكة الإنترنت.

فهرس موضوعات البحث

المحتويات

١٠١	تمهيد
١٠٥	المطلب الأول: الانتماء ضرورة وغريزة.
١١١	المطلب الثاني: خصائص اللغة العربية التي تدعم الانتماء.
١٢٠	الخاتمة
١٢١	قائمة المصادر والمراجع
١٢٣	فهرس موضوعات البحث

